



قد يظن البعض أن العبادات والشعائر التعبدية تقتصر على الصلوات الخمس وما يليها من نوافل، وكذا الصيام والحج، إلا أنَّ الأمر أوسع من ذلك وأعم وأشمل؛ فهذه الشعائر المفروضة والمسنونة يُضاف إليها الكثير والكثير مما قد يغفل الناس عنه، والذي يتعلّق بالدرجة الأولى بسلوكهم، ومعاملاتهم مع بعضهم البعض؛ فقد جرى الإسلام بتعاليمه السمحنة على إعلاء قيمة الأخلاق الفاضلة، والمثل العليا، ونشرها، وتحبيب الناس وترغيبهم فيها؛ فقد روى أبو داود والترمذى وصححه عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((ألا أدلّكم على أفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟)، قالوا: بل يا رسول الله! قال: ((إصلاح ذات البين؛ فإنَّ فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر ولكن تحلق الدين)).

إنَّ الذي يراقب ويحصي ما هو منظور من قضايا في ساحات القضاء – يقف على حقيقةٍ مُّرَّةً، مفادها أنَّ معظم تلك القضايا تتعلّق بالعلاقات بين الناس، والخصومات التي لا تكاد تنتهي؛ حيث تجد أُسرًا تتنازع، وشركاء مُتشاكسين، وجيرانًا مختلفين، وكلها تمسُّ ذات البين، وهذا يلفت أنظارنا إلى أنَّ الأزمة التي تعيشها أمَّتنا المسلمة إنما هي أزمة أخلاق لا غير.

رُويَ أنَّ أبي بكر رضي الله عنه عَيْنَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قاضياً على المدينة، فمكثَ عُمر سنةً كاملةً لم يختصُّ إليه اثنان، وعندما طلبَ مِنْ أبي بكر رضي الله عنه إعفاءً من القضاء، فقال أبو بكر: أَمِنَ مُشَفَّةً القضاء تطلب الإعفاء يا عمر؟ قال عمر: لا يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن لا حاجة لي عند قوم مؤمنين، عرفَ كُلُّ منهم ما له من حق، فلم يطلب أكثر منه، وما عليه من واجب، فلم يُقصِّر في أدائه، أحَبَّ كلَّ منهم لأخيه ما يحب لنفسه، إذا غاب أحدهم تفَقدَوه، وإذا مرض عادُوه، وإذا افتقر أعادُوه، وإذا احتاج ساعدُوه، وإذا أصيبَ عزُوه وواسوه، دينهم النصيحة، وخُلُقُهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ففيَمْ يختصُّون؟!

هل غابت تلك الصورة المثالية من المجتمع المسلم؟! أم أنَّ صورًا أخرى طفت وطفت على تعاملات الناس وعلاقتهم؟!

عبادة مفروضة:

إنَّ عبادة الإصلاح بين الناس مِنْ أَجْلِ العبادات وأعظمها؛ لذا اهتمَ بها القرآن الكريم، وجاءت الأوامر بالصلح بين المتخاصمين في مواضع شتَّى، قال الله تعالى: ﴿لَا خَيْرٌ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعُلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 114]، بل إنَّ العلماء عدوها من الفرائض التي أمرَ الله بها المؤمنين؛ حيث قال سبحانه: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: 1].

إنَّ دينَنا الإسلامي عَلِّمنا التعامل بالحسنى مع الناس قولًا وسلوكًا؛ قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا أَتِيَ هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَعُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: 53]، فالشَّيْطَان لا يزال بالإنسان حتى يُوقعه في هذه العداوة البغيضة التي تقطع الصلات، وتُفسِّد المودَّات، روى مسلم وأحمد والترمذى وحسنـه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهـما أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إنَّ الشَّيْطَانَ يَئِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصْلُونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكُنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ))، والتحرىش هو:

التحريض بالشر بين الناس حتى يختصموا ويقتتلا، والمؤمن الصادق يتعامل مع الناس من منطلق قول ربنا سبحانه تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي يَبْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاؤَ كَانَهُ وَلِيٌ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: 34]، والأجل أن هذا التعامل صعب على النفوس الضعيفة والمُندفعه والمتهورة؛ قال الله تعالى في الآية التي تليها: ﴿وَمَا يُلْفَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْفَاهَا إِلَّا نُو حَطٌ عَظِيمٌ﴾ [فصلت: 35].

هل دَبَ إِلَيْنَا دَاءُ الْأَمَمِ؟

لقد حذر الإسلام بتوجيهاته وأوامره ونواهيه في القرآن والسنة من التقليد الأعمى لغيرنا، خاصة في المساوى والمفاسد وسوء الأخلاق، وكان هذا التقليد آفة المشركين حين أعرضوا عن الإسلام بحجة أن آباءهم لم يكونوا عليه، بل كان أدبهم ودينهن وعقيدتهم عبادة الأصنام؛ قال الله تعالى مخبراً عن ذلك: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَتَبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: 170]، أما السنة الشريفة فحدّرت من ذلك أشد تحذير؛ فقد روى البخاري في صحيحه - كتاب الاعتصام بالسنة - عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((لتتبّعُ سننَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شَبِرًا شَبِرًا، وَذِرَاعًا ذِرَاعًا، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جَرَضًا تَعْتَمُوهُمْ))، قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: ((فَمَنْ؟))؛ أي: مَنْ غَيْرَ هؤُلَاءِ تَقْلِدُهُمْ؟

وأشعر ما ورثته هذه الأمة من الأمم قبلها، هذا الداء الذي شخصه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ روى الترمذى وأحمد عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((دَبَ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأَمَمِ قَبْلَكُمْ: الْحَسْدُ وَالْبَغْضَاءُ، وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالَةُ: حَالَةُ الدِّينِ لَا حَالَةُ الشِّعْرِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيدهِ، لَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَبُّوا، أَفَلَا أَنْبَكُمْ بِشَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابِيْتُمْ؟ أَفْشَوُوا السَّلَامَ بِيْنَكُمْ))، كذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التدابر والتقاطع بين المسلمين؛ روى البخاري ومسلم في صحيحهما، والترمذى في سننه، وقال: حسن صحيح، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لَا تَقَاطِعُوا، وَلَا تَدَابِرُوا، وَلَا تَبَاغِضُوا، وَلَا تَحَاسِدُوا، وَكُونُوا عِبَادُ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَحُلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ))، وفيه نهي صريح عن التقاطع، الذي هو ضد التواصل، وكذلك نهي عن التبغض الذي يؤدي إلى الشحناء والتقاطع أيضاً، أما الحسد فيكفي أنه يأكل حسنات العبد، و يجعل صدره ضيقاً حرجاً من نعيم الله على عباده، وما ذلك بسلوك سويٍّ، بل هو خلق دنيٍّ، يستحق صاحبه الحرمان، بل إنَّ عاقبَتَهُ الْخَسْرَانُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ؛ لأنَّ صاحبَهُ أَسَاءَ الْأَدْبَرَ مع ربه، ومع نعيمه؛ يقول الشاعر:

أيا حاسداً لي على نعمتي

أندرني على من أساء الأدب؟

أسأت على الله في حكمه

لأنكَ لم ترضَ لي ما وهبَ

فأخذاكَ ربِي بِأَنْ زادَني

وسدَ عليكَ وجْهَ الطلبِ!

عبادة تبشر صاحبها بالجنة:

إنَّ الذي يُنقِي قلبَه من هذه الأدران، وتلك الأمراض، ويبتُّ محبَّاً للناس، غير مقطع الصِّلات والأرحام، يغفو عن ظلمه، يعطي مَنْ حَرَمه، يصل من قطعه - لهو جدير بالفوز برضاء الله تعالى وجنته، ولقد أكدت السنة الشريفة على ذلك؛ روى أحمد في المسند - وقال مُحَقِّقهُ شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيفين - وروى الترمذى، والنَّسائى،

والطبراني، والحاكم في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ مِّنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ)), فطلع رجل من الأنصار، تتطاير لحيته ماءً من وضوئه، معلقٌ نعليه في يده الشمال، فلما كان مِنَ الْغَدِ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ مِّنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ)), فطلع ذلك الرجل على مثل مرتبته الأولى، فلما كان من الغد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، تبعه عبدالله بن عمرو بن العاص، فقال: إني لاحيت أبي - أبا: خاصمته - فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاث ليالٍ، فإن رأيت أن تُؤْتِنِي إليك حتى تحلَّ يميني فعلت، فقال: نعم، قال أنس: فكان عبدالله بن عمرو بن العاص يحدث أنه: بات معه ليلة، أو ثلاث ليالٍ، فلم يرِه يقوم من الليل بشيءٍ، غير أنه إذا انقلب على فراشه ذكر الله وكبر، حتى يقوم لصلاة الفجر، فُسِّيَّعَ الوضوء، قال عبدالله: غير أني لا أسمعُه يقول إلا خيراً، فلما مضتَ الثلاَث ليالٍ كدتُ أحترق عمله، قلتُ: يا عبد الله، إنه لم يكن بيني وبين والذي غضبَ ولا هجرَه، ولكنني سمعتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لك ثلاَث مرات، في ثلاَث مجالس: ((يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ مِّنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ)), فطلعت أنت تلك الثلاَث مرات، فأردتُ أن آويَ إليك، فأنا صرفتُ عنه، فلما وليتُ دعاني، فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي غلاً لأحدٍ من المسلمين، ولا أحسده على خيرٍ أعطاوه الله إياه، قال عبدالله بن عمرو: هذه التي بلغتُ بك، وهي التي لا نطبق".

فالمسارعة المسارعة إلى تلك الفضائل، ونبذ ما عادها من رذائل، حتى تلحق بالأولين، الذين اتقوا و كانوا مُحسنين، ولنُذكر من الدعاء الذي عَلَّمَه ربنا لنا: ﴿رَبَّنَا أَغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلَّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: 10].

الصلح في نطاق الأسرة:

ما أعظمه من صلح حتى تستقيم الأسر، وبهذا الأبناء بجو أسريٍّ، يتعاون فيه كل زوجين من أجل التنشئة الطيبة والصالحة لهؤلاء الأبناء؛ فإن الشِّقاق والخلاف داخل الأسرة يفتّ بها أشد فتك، بل يفتّ بالمجتمع كله، فالأسرة نواة المجتمع، ولقد أمر الإسلام بالتعاون والتعامل بالرفق في كل الأمور، والأسرة هي الأولى بكل برٍ وخير ومودة، فخير الناس خيرُهم لأهله، وإذا حدث ما يُعَكِّر صفو هذه الحياة من شقاق وقطيعة، فإن الإصلاح هو ما أمر الله به عن طريق أصحاب الألباب، من الذين رزقهم الله الحكمة في لِمِ الشَّمْلِ، وتذليل العقبات لإعادة الحياة إلى طبيعتها؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنَهُمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء: 35]، وأجمل وصفٍ وصفَ الله تعالى به الصلح أنه خير؛ فقال تعالى: ﴿وَالصَّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: 128]، فهو خيرٌ من الشقاق، وهو خيرٌ من الفراق، وهو خيرٌ من البغضاء التي تكونُ في النفوس.

بقيَ لنا أن نُبيِّن صفات من يتدخل للإصلاح؛ إذ ينبغي أن يكون مَقصُودُه الأول إرضاء الله تعالى، والإخلاص في عمله، وبذل النصيحة للطرفين، حتى يوفق في مهمته، كذلك عليه أن يتحرجَ العدل؛ لينصف المظلوم، ويردَّ إليه حقه، ويعمل على تضييق دائرة المعرفة بتلك المشكلة متى أمكنه ذلك؛ حتى لا يستشري الخبر وينتشر، ويتكلّم فيه هذا وذاك، كلٌّ حسب فهمه، فتتعدد الأفهام، وتختلف الرؤى، ويتسع الخرق على الواقع، فيقل احتمالُ التوصل إلى حلٍ يرضي الطرفين، فكتمان الأسرار والأخبار أول طريق النجاح والإصلاح بين المتنازعين، وكما قيل: استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان.

إنَّ المجتمع بما فيه من أضداد ورؤى مختلفة، وأهواء متعددة - لِيَحْتاجُ إلى هذه الفضيلة وتلك العبادة؛ عبادة إصلاح ذات

البَيْنَ، الَّتِي يَنْبُغِي أَنْ يُمارِسُهَا أَفْرَادُهُ كُلُّمَا وَجَدُوا أَنفُسَهُمْ فِي دَائِرَةِ خَلَافٍ أَوْ شِقَاقٍ، قَدْ تَجْرُّهُمْ إِلَى طَرِيقٍ كُلِّهُ بَعْضَاءٍ وَشَحْنَاءٍ، لَا يُوجَدُ فِيهِ رَابِعٌ وَفَائِزٌ وَمُنْتَصِرٌ، فَالكُلُّ فِي نِهايَتِهِ خَاسِرٌ، وَالخَسَارَةُ لَا يُشْتَرِطُ أَنْ تَكُونَ فِي الْمَادِهِ فَحَسْبٌ، بَلْ إِنَّ خَسَارَةَ الْأَصْحَابِ وَالْخَلَانَ، لَهِ أَعْظَمُ الْخَسَارَةِ، كَيْفَ لَا وَهِيَ تَهْدِمُ الْمَجَمِعَ هَدْمًا، وَتَشْقِهُ لَيْسَ نَصَفَيْنِ، بَلْ أَرْبَاعًا وَأَخْمَاسًا وَأَسْدَاسًا وَأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ؟

إِنْ سَنَّةَ اللَّهِ فِي الْخَلْقِ أَنْ يَكُونَ الْبَأْسُ بَيْنَهُمْ؛ رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِنَّ اللَّهَ زُوْيَ لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مُشَارِقَهَا وَمُغَارِبَهَا، وَإِنَّ أَمْتَيْ سَيْلَانِ مُلْكِهَا مَا زُوْيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيَتِ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرِ وَالْأَبْيَضِ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأَمْتَيْ أَلَا يَهْلِكُهَا بَسْنَةً عَامَةً – أَيْ: بِالْفَحْطِ وَالْمَجَاعَةِ – وَأَلَا يُسْلِطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سَوْيِ أَنفُسِهِمْ فَيَسْتَبِّحَ بِيَضْنِتِهِمْ، وَإِنِّي رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يَرُدُّ، وَإِنِّي أُعْطَيْتُكَ لِأَمْتَكَ أَلَا أَهْلِكُهُمْ بَسْنَةً عَامَةً، وَأَلَا يُسْلِطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سَوْيِ أَنفُسِهِمْ يَسْتَبِّحَ بِيَضْنِتِهِمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا – أَوْ قَالَ: مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا – حَتَّى يَكُونَ بَعْضَهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيُسْبِي بَعْضَهُمْ بَعْضًا))، وَفِي رَوَايَةِ أُخْرَى لِمُسْلِمٍ: ((سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثَةَ، فَأَعْطَانِي ثَلَاثَيْنِ وَمَنْعِنِي وَاحِدَةً؛ سَأَلْتُ رَبِّي أَلَا يَهْلِكُ أَمْتَيْ بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيَهَا، وَسَأَلْتُهُ أَلَا يَجْعَلَ بِأَسْهَمِهِمْ فَمَنْعِنِيَهَا)، وَمَا دَامَ الْخَلَافُ فَطَرِيًّا وَمَوْجُودًا لَا مَحَالَةَ، فَيَنْبَغِي أَنْ تُرْشِدَ الْخَلَافُ، فَنَتَحَاورُ بِالْأَدْبِ، وَنُجَادِلُ بِالْتِي هِيَ أَحْسَنُ، وَلَا يَحْمِلُنَا هَذَا الْخَلَافُ إِلَى إِثْرَةِ الْعَدَاوَاتِ، وَالْدُّعُوَّةِ إِلَى التَّحْزُبِ وَالْعَصَبِيَّاتِ؛ فَالْجَمِيعُ لَا بَدَّ أَنْ يَسْتَشْعِرُوا أَنَّهُمْ فِي سَفِينَةٍ وَاحِدَةٍ، إِنْ غَرَقَتْ غَرَقَتْ بِالْجَمِيعِ، فَلَا نَاجِيَ يَوْمَئِذٍ، نَسْأَلُ اللَّهَ السَّلَامَ.

فَلَنْبَدِأْ مِنَ الْآَنِ؛ فَطَرِيقُ "الْأَلْفِ مِيلٍ" يَبْدُأْ بِخَطْوَةٍ، وَالصَّلَحِ خَيْرٌ، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدُأْ بِالسَّلَامِ.

اللَّهُمَّ أَلْفِ عَلَى الْخَيْرِ قَلْوبِنَا، وَأَصْلَحْ ذَاتَ بَيْنَنَا، وَاهْدِنَا سُبُلَ السَّلَامِ، وَنَجِّنَا مِنَ الظَّلَمَاتِ إِلَى النُّورِ، إِنَّكَ نَعْمَ الْمَوْلَى وَنَعْمَ النَّصِيرُ.

وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ

الْأَلْوَكَةُ

المصادر: